والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه وقوله ﴿**فسوف يبصرون**﴾ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾.

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحًا فسميت الغارة صباحًا وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود فبئس صباح.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾.

وقرئ: ﴿**نزل بساحتهم**﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على ونزل العذاب، والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(1)، وإنما ثنى.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾.

﴿**وتول عنهم**﴾ ليكون تسلية على تسلية وتأكيدًا لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معًا عن التقييد بالمفعول.

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾.

وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾.

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: ﴿تعز من تشاء﴾(2) اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون.

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾.

والتسليم على المرسلين.

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾.

﴿**والحمد لله رب العالمين**﴾ على ما قيض لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد وعن عليّ رضي الله عنه من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(3). عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنًا بالمرسلين»(4).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ص مكية

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾.

﴿**صٓ**﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة، وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلنّ كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجرّ كقولهم الله لأفعلنّ بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ صَ بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة،

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (الحديث: 4198)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، الحديث: (121 ـ 1365).

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) ذكر الزيلعي أنه أخرجه عبد الرزاق في المصنف، وذكره الثعلبي =

= في تفسيره، وذكره الواحدي في تفسيره، وابن حاتم في تفسيره: 3/182.

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي: 3/182.

obeikandi.com

ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه.

فإن قُلْتَ: قوله صَ **﴿والقرآن ذي الذكر﴾** كلام ظاهره متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه! **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه كما قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز والثاني أن يكون صَ خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة كأنه قال هذه صَ يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بصَ والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز.

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾.

ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله وإذا جعلتها مقسمًا بها وعطفت عليها والقرآن ذي الذكر جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير الرجل والذكر الشرف والشهرة من قولك فلان مذكور، وإنه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد والتنكير في عزة وشقاق للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما، وقرئ في غرّة أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾.

﴿كم أهلكنا﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق **﴿فنادوا﴾** فدعوا واستغاثوا وعن الحسن فنادوا بالتوبة **﴿ولات﴾** هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب، وثم للتوكيد وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضييها إمّا الاسم، وإما الخبر وامتنع بروزهما جميعًا وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعند الأخفش أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان و **﴿حين مناص﴾** منصوب بها كأنك قلت: ولا حين مناص لهم وعنه أنّ ما ينتصب بعده بفعل مضمر أي ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء أي ولا حين مناص كائن لهم وعندهما أنّ النصب على ولات الحين حين مناص أي وليس الحين حين مناص والرفع على ولات حين مناص حاصلاً لهم، وقرئ حين مناص بالكسر ومثله قول أبي زبيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أنْ لات حين بقاء

فإن قُلْتَ: ما وجه الكسر في أوان؟ **قُلْتُ:** شبّه بإذ في قوله وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لانّ الأصل ولات أوان صلح.

فإن قُلْتَ: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ **قُلْتُ:** نزل قطع المضاف إليه من مناص لأنّ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف إليه وجعل تنوينه عوضًا من الضمير المحذوف ثم بنى الحين لكونه مضافًا إلى غير متمكن، وقرئ ولات بكسر التاء على البناء كجير.

فإن قُلْتَ: كيف يوقف على لات؟ **قُلْتُ:** يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التأنيث وأمّا الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة وأمّا قول أبي عبيد إنّ التاء داخلة على حين، فلا وجه له واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط والمناص المنا والفوت يقال ناصه ينوصه إذا فاته واستناص طلب المناص قال حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جرى المسحل

وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾.

﴿منذر منهم﴾ رسول من انفسهم **﴿وقال الكافرون﴾** ولم يقل وقالوا إظهارًا للغضب عليهم ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم أولئك هم الكافرون حقًا وهل ترى كفرًا أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدّقه الله بوحيه كاذبًا ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحته، روي أنّ إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحًا شديدًا وشق على قريش وبلغ منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني» قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال عليه السلام: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقالوا: نعم، وعشرًا أي نعطيكها وعشر كلمات معها فقال: قولوا لا إلّه إلاّ الله فقاموا وقالوا(1).

أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون من الفتن (الحديث رقم: 3232) وأحمد في المسند 1/362.

﴿أجعل الآلهة إلَهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ أي بليغ في العجب، وقرئ: ﴿عجّاب﴾ بالتشديد كقوله تعالى: ﴿مكرًا كبارًا﴾[1] وهو أبلغ من المخفف ونظيره كريم وكرام وكرّام، وقوله أجعل الآلهة إلَهاً واحدًا مثل قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال اجعل الجماعة واحدًا في قوله لأنّ ذلك في الفعل محال.

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾.

﴿الملأ﴾ أشراف قريش يريدوا انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه، فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه، أو أن دينكم لشيء يراد أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، وأن بمعنى أي لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلاقهم مضمنًا معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول وأنهم قالوا امشوا أي أكثروا واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية قال رسول الله ﷺ: «ضموا فواشيكم[2]»[3]. ومعنى واصبروا على آلهتكم واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ وانطلق الملأ منهم امشوا بغير أن على إضمار القول وعن ابن مسعود وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا.

مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾.

﴿في الملة الآخرة﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا كائنًا في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين، والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله، ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أي افتعال وكذب، أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم.

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾.

﴿بل هم في شك﴾ من القرآن يقولون في أنفسهم أما وأما وقولهم إن هذا إلا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ يعني: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله كما قال: أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا ثم رشح هذا المعنى فقال:

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾.

﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلَهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا تحق له ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خسأهم خساءة عن ذلك بقوله:

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث لما به يهذون وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره ... إلا أنه على سبيل الهزء

وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست هناك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾.

---

(1) سورة نوح، الآية: 22.

(2) فواشي: جمع فاشية، وهي كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم وغيرها.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الطهارة، باب: الأدعية (الحديث رقم: 1276) وعند مسلم «لا ترسلوا فواشيكم..» أخرجه في كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الأناءة... (الحديث رقم: 98 ـ 2013).

﴿ذو الأوتاد﴾ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده قال:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود في ظل ملك ثابت الأوتاد وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت وقيل: كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾.

﴿أولئك الأحزاب﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب، ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحدًا منهم فقد كذبوهم جميعًا وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاً وبالاستثنائية ثانيًا وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدّ العقاب وأبلغه، ثم قال:

إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾.

﴿فحق عقاب﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم.

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾.

﴿هؤلاء﴾ أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة النفخة ﴿وما لها من فواق﴾ وقرئ بالضم ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾[1] وعن ابن عباس ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾.

القط القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه وقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عجل لنا قطنا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾[2] وقيل: ذكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ: كيف تطابق قوله: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ وقوله: ﴿واذكر عبدنا داود﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قُلْتُ: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوّة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه، فاستغفر وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قاله ﷺ: اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي ﴿ذا الأيد﴾ ذا القوّة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوّة والملك يصوم يومًا ويفطر يومًا وهو أشدّ الصوم ويقوم نصف الليل يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأياد كل شيء ما يتقوّى به ﴿أوّاب﴾ توّاب رجاع إلى مرضاع الله.

فإن قُلْتَ: ما دلك على أنّ الأيد القوّة في الدين! قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿إنه أوّاب﴾[3] لأنه تعليل لذي الأيد.

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾.

﴿والإشراق﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق وعن أمّ هانئ دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق»[4]. وعن طاوس عن ابن عباس قال: هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا. فقرأ: ﴿إنا سخرنا له الجبال معه يسبحن بالعشيّ والإشراق﴾ وقال: «كانت صلاة يصليها داود عليه السلام وعنه ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية وعنه لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يسبحن بالعشيّ والإشراق» وكان لا يصلي صلاة الضحى، ثم صلاها بعد وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجدك ذلك في

(1) سورة الأعراف، الآية: 34.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 53.
(3) سورة صٓ، الآية: 44.
(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/53.

كتاب الله تعالى يعني: هذه الآية ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾[1] وقول أهل الجاهلية أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق، ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات! **قُلْتُ:** نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يفاع تحرق.

ولو قال: محرقة لم يكن شيئًا

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله: ﴿**محشورة**﴾ في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء جيء به اسمًا لا فعلاً وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئًا بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خلفًا لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها، وقرئ والطير محشورة بالرفع ﴿**كل له أوّاب**﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه ووضع الأوّاب موضع المسبح إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعًا بعد رجوع وإمّا لأنّ الأوّاب، وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه، وقيل: الضمير لله أي: كل من داود والجبال والطير لله أوّاب أي: مسبح مرجع للتسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿**وشددنا ملكه**﴾ قوّيناه قال تعالى: سنشدّ عضدك وقرئ: ﴿**شددنا**﴾ على المبالغة قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستئم يحرسونه وقيل: الذي شدّ الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة أنّ رجلاً ادّعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدّعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فأعلم الرجل، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ لم يأخذني بهذا الذنب ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أذنب أحد ذنبًا أظهره الله عليه فقتله فهابوه: ﴿**الحكمة**﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، الفصل التمييز بين الشيئين وقيل: للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في تقضبه فصل أي مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله فويل للمصلين إلا موصولاً بما بعده ولا والله يعلم وأنتم حتى يصله بقوله لا تعلمون ونحو ذلك، وكذلك مظانّ العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه هو قوله: «البينة على المدّعي واليمين على المدّعي عليه». وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم هو قوله: أما بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أمّا بعد، ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع مملّ ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نذر ولا هذر[2]، كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن ينزل له عن امرأته فيتزوّجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها فاستحيا أن يردّه، ففعل فتزوّجها وهي أمّ سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إنّ آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلى إبراهيم بنمروذ وذبح ولده وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة

(1) سورة الحجر، الآية: 73.

(2) تقدم في الأعراف. أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: الهدي في الكلام (الحديث رقم: 4839).

حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت فامتدّ إليها فطارت فوقعت في كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء: أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء[1] وروي أنه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال: عمر لسماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قُلْتَ: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ **قُلْتُ:** لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أنّ التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكنًا من قلبه وأعظم أثرًا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ من أن يبادره به صريحًا مع مراعاة حُسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض لها بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياسًا لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قُلْتَ: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ **قُلْتُ:** ليحكم بما حكم به من قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه حتى يكون محجوجًا بحكمه ومعترفًا على نفسه بظلمه.

۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾.

﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع، ولا تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف قال الله تعالى: حديث ضيف إبراهيم المكرمين لأنه مصدر في أصله تقول خصمه خصمًا كما تقول ضافه ضيفًا.

فإن قُلْتَ: هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام ذلك؟ **قُلْتُ:** معنى خصمان فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من قرأ خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: ﴿هذا خصمان اختصموا في ربهم﴾[2].

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله إن هذا أخي وهو دليل على اثنين! **قُلْتُ:** هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض.

فإن قُلْتَ: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان! **قُلْتُ:** معناه أنّ التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون.

فإن قُلْتَ: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعًا خصمًا في قوله نبأ الخصم وخصمان؟ **قُلْتُ:** لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

فإن قُلْتَ: بم انتصب **﴿إذ﴾**! **قُلْتُ:** لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بالنبأ، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبأ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبأ القصة في نفسها لم يكن ناصبًا فبقي أن ينتصب بمحذوف وتقديره، وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وأما إذ الثانية فبدل من الأولى **﴿تسوروا المحراب﴾** تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته روي أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾.

﴿ففزع منهم﴾ قال ابن عباس: إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يومًا للعبادة ويومًا للقضاء ويومًا للاشتغال بخواص أموره ويومًا يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجاؤه في غير يوم القضاء ففزع منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتكره من يدخل عليه **﴿خصمان﴾** خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان **﴿ولا تشطط﴾** ولا تجر،

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) سورة الحج، الآية: 19.

وقرئ ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق، وقرئ: ﴿ولا تشطط﴾ ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق و ﴿سواء الصراط﴾ وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾.

﴿أخي﴾ بدل من هذا أو خبر لأنّ المراد أخوّة الدين أو أخوّة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿وإنّ كثيرًا من الخلطاء﴾[1] وكل واحدة من هذه الأخوّات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطح ونطع ولقوة ولقوة ﴿اكفلنيها﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿وعزني﴾ وغلبني يقال عزه تعزه قال:

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

يريد جاءني بحجاج لم أقدر أن أورده عليه ما أردّ به وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابًا أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوّجها دوني، وقرئ وعازني من المعازة وهي المغالبة وقرأ أبو حيوة وعزني بتخفيف الزاي طلبًا للخفة وهو تخفيف غريب وكأنه قاسه على نحو ظلت ومست.

فإن قُلْتَ: ما معنى ذكر النعاج؟ قُلْتُ: كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والدليل عليه قوله وإنّ كثيرًا من الخلطاء وإنما خصّ هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة.

فإن قُلْتَ: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم؟ قُلْتُ: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله:

يا شاة ما قنص لمن حلت له فرميت غفلة عينه عن شاته

وشبّهها بالنعجة من قال كنعاج الملا تعسفن رملاً لولا أنّ الخلطاء تأباه إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قُلْتَ: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قُلْتُ: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي كما تقول في تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاة وأربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعجة أنثى؟ قُلْتُ: يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله: فتور القيام قطيع الكلام وقوله: تمشي رويدًا تكاد تنغرف.

قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾.

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: من دعاء الخير وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها كأنه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب.

فإن قُلْتَ: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟ قُلْتُ: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ويروى أنه قال: أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدًا فعرف ما وقع فيه ﴿الخلطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة والخليطة والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين لا شيء

(1) سورة صٓ، الآية: 24.

obeikandi.com

عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة ثلاث شياه.

فإن قُلْتَ: فهذه الخلطة ما تقول فيها! **قُلْتُ:** عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه.

فإن قُلْتَ: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ **قُلْتُ:** قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة وقرئ ليبغي بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: اضرب عنك الهموم طارقها، وهو جواب قسم محذوف وليبغ بحذف الياء اكتفاء منها بالكسرة وما في ﴿وقليل ما هم﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظنّ الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن ﴿أنما فتناه﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرئ فتناه بالتشديد للمبالغة وأفتناه من قوله: لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت وفتناه وفتناه على أنّ الألف ضمير الملكين، وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أنّ الركوع يقوم مقام السجود وعن الحسن لأنه لا يكون ساجدًا حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راكعًا أي مصليًا لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة.

﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل وروي أنه بقي ساجدًا أربعين يومًا وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع وجهد نفسه راغبًا إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها وقيل: إنّ الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسرًا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري والثاني معسرًا ما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته.

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾.

﴿خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ومنه قولهم خلفاء الله في أرضه أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير **﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾** أي بحكم لله تعالى إذا كنت خليفته **﴿ولا تتبع﴾** هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا **﴿فيضلك﴾** الهوى فيكون سببًا لضلالك **﴿عن سبيل الله﴾** عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها و**﴿يوم الحساب﴾** متعلق بنسوا أي بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾.

﴿باطلاً﴾ خلقًا باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة أو مبطلين عابثين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾(1) ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾(2). وتقديره نوي باطل أو عبثًا فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنيًا موضع المصدر وهو صفة أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناها نفوسًا أودعناها العقل والتمييز ومنحناها بالتمكين وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم و**﴿ذلك﴾** إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قُلْتَ: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾(3) فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكم! **قُلْتُ:** لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤديًا إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأنّ الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جحده

(1) سورة الدخان، الآية: 38.

(2) سورة الدخان، الآية: 39.

(3) سورة لقمان، الآية: 25.

obeikandi.com

فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقًا كلا إقرار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى: الاستفهام فيها الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهًا ولم يكن حكيمًا.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقرئ: ﴿مباركًا﴾ وليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب وتدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة لأنّ من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا وقد والله أسقطه كله ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القرء المتكبرين.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

وقرئ: ﴿نعم العبد﴾ على الأصل والمخصوص بالمدح محذوف، وعلل كونه ممدوحًا بكونه أوّابًا رجاعًا إليه بالتوبة أو مسبحًا مؤوبًا للتسبيح مرجعًا له لأنّ كل مؤوب أوّاب.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

والصافن الذي في قوله ألف الصفون فما يزال كأنه، مما يقوم على الثلاث كسيرا وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن، فالذي يجمع بين يديه وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار»[1] أي واقفين كما خدم الجبابرة.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى وصفها بالصفون؟ **قُلْتُ**: الصفون لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخلص وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جريها[2]. وروي أنّ سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يومًا بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لمّا فاته فاستردّها وعقرها مقربًا لله وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل: لما عقرها أبدله الله خيرًا منها وهي الريح تجري بأمره.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى: ﴿أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾؟ **قُلْتُ**: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي أو جعلت حب الخير مجزيًا أو مغنيًا عن ذكر ربي وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان أن أحببت بمعنى لزمت من قوله مثل بعير السوء إذا أحبا وليس بذاك والخير المال كقوله إن ترك خيرًا، وقوله: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ والمال الخيل التي شغلته أو سمى الخيل خيرًا كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[3] وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير»[4]. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستقون من السابق، فقال رسول الله ﷺ فقال له الرجل أردت الخيل فقال وأنا أردت الخير[5]، والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك أو المخبأة بحجابهما والذي دلّ على أنّ الضمير للشمس مرور ذكر العشي ولا بد للمضمر من جري ذكر أو دليل ذكر وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت بحجاب الليل يعني: الظلام ومن يدع التفاسير أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه.

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).

(2) قال: الصفون أن يقف على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمنخيم والصافن الذي يجمع بين يديه. قال: ووصفها بذلك؛ لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخلص، أو وصفها ليجمع لها الوصفين المحمودين جارية وواقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمانينة؛ لأنّ= ذلك من لوازم الصفون غالباً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير (الحديث: 2849)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الحديث: (96ـ 1871).

(4) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي: 3/ 190.

(5) قال الزيلعي: أخرجه إبراهيم الحربي في كتابه: 3/ 191.

﴿فطفق مسحًا﴾ فجعل يمسح مسحًا أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقيها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في ألقاب الزحاف في العروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف وقيل مسحها بيده استحسانًا لها وإعجابًا بها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله ردوها عليّ! **قُلْتُ:** بمحذوف تقديره قال: ردوها على فاضمر واضمر ما هو جواب له كان قائلاً قال فماذا قال سليمان لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهرًا وهو اشتغال نبي من أنبياء الله بأمر الدنيا حتى تفوته الصلاة عن وقتها، وقرئ بالسؤوق بهمز الواو لضمتها كما في أدؤر ونظيره الغؤر في مصدر غارت الشمس وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل مؤسى ونظير ساق وسوق أسد وأسد، وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لا من الإلباس قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغذوه في السحابة فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتًا فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه، وروي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». «ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[1]. فذلك قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يرى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته[2] حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأنّ بها ملكًا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهًا فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعها حزنًا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهنّ في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبًا إلى الله متضرّعًا وكانت له أمّ ولد يقال لها: أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يومًا وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحًا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهنّ ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدًا ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقرّ في يدك فتب إلى الله عز وجل ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ قبيح وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع الا ترى إلى قوله من محاريب وتماثيل وأما السجود للصورة فلا يظن بنبيّ الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه وقوله: **﴿وألقينا على كرسيه جسدًا﴾** ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوًا ظاهرًا.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾.

قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جريًا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم **﴿لا ينبغي﴾** لا يتسهل ولا يكون، ومعنى **﴿من بعدي﴾** دوني.

فإن قُلْتَ: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره! **قُلْتُ:** كان سليمان عليه السلام ناشئًا في بيت الملك والنبوّة ووارثًا

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان....﴾ (الحديث: 3424)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الاستثناء الحديث: (25 ـ 1654).

(2) قال الزيلعي: ذكره ابن كثير في تفسيره، وقال: إسناده قوي 3/ 192.

لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات فذلك معنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدي وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن يعطي مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك وقيل: ملكًا لا أسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي كما سلبته مرّة وأقيم مقامي غيري، ويجوز أن يقال علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله، الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده أو أراد أن يقول ملكًا عظيمًا فقال: لا ينبغي لأحد من بعدي ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك ولكنك تريد تعظيم ما عنده وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد مني من قال هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي وهذا من جرأته على الله وشيطنته، كما حكي عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وأولي الأمر منكم﴾.

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾.

قرئ: الريح والرياح ﴿رخاء﴾ لينة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة له لا تمتنع عليه ﴿حيث أصاب﴾ حيث قصد وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب وعن رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله بك خيرًا.

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾.

﴿والشياطين﴾ عطف على الريح ﴿كل بناء﴾ بدل من الشياطين.

وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾.

﴿وآخرين﴾ عطف على كل داخل في حكم البدل وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برّك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك ومنه قول القائل:

غل يدا مطلقها وأرق رقبة معتقها

وقال حبيب: إنّ العطاء إسار وتبعه من قال:

ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدًا

وفرّقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه كوعده وأوعده.

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

أي: ﴿هذا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عطاؤنا﴾ بغير حساب يعني: جمًا كثيرًا لا يكاد يقدر على حسبه وحصره ﴿فامنن﴾ من المنة وهي العطاء أي فاعط منه ما شئت ﴿أو أمسك﴾ مفوّضًا إليك التصرف فيه وفي قراءة ابن مسعود هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب أي لا حساب عليك في ذلك.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾.

﴿أيوب﴾ عطف بيان و﴿إذ﴾ بدل اشتمال منه ﴿أني مسني﴾ بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ بنصب بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وبفتحهما وضمهما فالنصب والنصب كالرشد والرشد والنصب على أصل المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة، والعذاب الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب وقيل الضرّ في البدن والعذاب في ذهاب الأهل والمال.

فإن قلْتَ: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضي من أتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب! **قُلْتُ:** لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة، والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتدّ أحدهم فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان إنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين وذكر في سبب بلائه أنّ رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وقيل: أعجب بكثرة ماله.

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾.

﴿اركض برجلك﴾ حكاية ما أجيب به أيوب أي اضرب

برجلك الأرض وعن قتادة هي أرض الجابية فضربها فنبعت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك وتنقلب ما بك قلبة وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارّة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿رحمة منا وذكرى﴾ مفعول لهما والمعنى أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولي الألباب لأنهم إذا سمعوا بما انعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وخذ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وعن ابن عباس قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج قد خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة»[1]. ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إمّا أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فاردّ عليكم مالكم وأولادكم فهمت بذلك فأدركتها العصمة فذكرت ذلك له فحلف وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجدناه صابرًا﴾ علمناه صابرًا.

فإن قُلتَ: كيف وجده صابرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟

قُلتُ: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعًا ولقد قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابرًا مع تمني العافية وطلب الشفاء فليسم صابرًا مع اللجأ إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أنّ أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبيًا لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوّة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان، ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهبني ما ملكت يميني ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيًا ومعي جائع، أو عريان فكشف الله عنه.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعبادنا ومن قرأ عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس وإله أبيك إبراهيم وإسمعيل وإسحق، لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جذمًا لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يريد أولي الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمني الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما وقرئ أولى الأيادي على جمع الجمع، وفي قراءة ابن مسعود أولى الأيد على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿اخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بذكرى الدار شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بما خلص من ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر إنما همهم ذكرى الدار لا غير ومعنى ذكرى الدار ذكراهم الآخرة دائبًا ونسيانهم إليها ذكر الدنيا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء وديدنهم وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

فإن قُلتَ: ما معنى أخلصناهم بخالصة! **قُلتُ:** معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها وتعضد الأوّل قراءة من قرأ بخالصتهم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم

---

(1) أخرجه أحمد في المسند: 5/222.

و ﴿الأخيار﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كالأموات في جمع ميت أو ميت ﴿واليسع﴾ كان حرف التعريف دخل على يسع، وقرئ: ﴿والليسع﴾ كأن حرف التعريف دخل على ليسع فيعل من اللسع، والتنوين في ﴿وكل﴾ عوض من المضاف إليه معناه وكلهم من الأخيار.

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾.

﴿هذا ذكر﴾ أي هذا نوع من الذكر وهو القرآن لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن يذكر على عقبه بابًا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها قال: هذا ذكر، ثم قال ﴿وإنّ للمتقين﴾ كما يقول: الجاحظ في كتبه فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وإنّ للطاغين وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه هذا ذكر من مضى من الأنبياء.

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾.

﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله جنات عدن التي وعد الرحمن وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب و ﴿مفتحة﴾ حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي ﴿مفتحة﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال وقرئ: ﴿جنات عدن مفتحة﴾ بالرفع على أنّ ﴿جنات عدن﴾ مبتدأ و ﴿مفتحة﴾ خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿جنات عدن﴾ هي مفتحة لهم كان اللدات سمين أترابًا لأنّ التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الأقران أثبت وقيل: هنّ أتراب لأزاجهن أسنانهن كأسنانهم.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾.

قرئ: ﴿يوعدون﴾ بالتاء والياء ﴿ليوم الحساب﴾ لأجل يوم الحساب كما تقول هذا ما تدخرونه ليوم الحساب أي ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾.

﴿هذا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾.

﴿فبئس المهاد﴾ كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾.

أي هذا حميم فليذوقوه أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتدأ فقال هو: ﴿حميم وغساق﴾، أو هذا فليذوقوه بمنزلة وإياي فارهبون أي ليذوقوا هذا فليذوقوه والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين إذا سال دمعها وقيل: الحميم يحرق بحرّه والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وعن الحسن رضي الله عنه الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابًا في قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة﴾.

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾.

﴿وآخر﴾ ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدّة والفظاعة ﴿أزواج﴾ أجناس وقرئ وآخر أي وعذاب آخر أو مذوق آخر وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبًا أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير.

هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾.

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقتحام ركوب الشدّة والدخول فيها والقحمة الشدّة وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مرحبا بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعو له مرحبًا أي أتيت رحبًا من البلاد لا ضيقًا أو رحبت بلادك رحبًا ثم تدخل عليه في دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿إنهم صالوا النار﴾ تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ونحوه قوله تعالى: ﴿كلما دخلت أمّة لعنت أختها﴾ وقيل: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ولا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾.

﴿قالوا﴾ أي الاتباع ﴿بل أنتم لا مرحبًا بكم﴾ يريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى تقديمهم العذاب لهم! **قُلْتُ:** المقدم هو عمل السوء قال الله تعالى: ﴿ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم﴾[1] لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه

(1) سورة آل عمران، الآية: 181 ـ 182.

obeikandi.com

بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدّم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤساؤهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فإن قُلْتَ: فالذي جعل قوله لا مرحبًا بهم من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بل أنتم لا مرحبًا بكم والمخاطبون أعني رؤساءهم لم يتكلموا بما يكون هذا جوابًا لهم؟ **قُلْتُ:** كأنه قيل هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه فقيل للمزينين أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم فقال المزين لهم للمزينين بل أنتم الأَولى بالخزي منا فلو لا أنتم لم نرتكب ذلك.

قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾.

﴿قالوا﴾ هم الأتباع أيضًا **﴿فزده عذابًا ضعفًا﴾** أي مضاعفًا ومعناه ذا ضعف ونحوه قوله تعالى: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا﴾ وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ وجاء في التفسير عذابًا ضعفًا حيات وأفاعي.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾.

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين **﴿رجالا﴾** يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم **﴿من الأشرار﴾** من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارًا.

أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾.

﴿اتخذناهم سخريًا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً مثل قوله كنا نعدهم من الأشرار وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم وقوله **﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾** له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله: ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصار نافلاً نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل باتخذناهم سخريًا إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم والتحقير وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعًا على أنفسهم وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريًا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم وإما أن تكون منقطعة بعد مضي اتخذناهم سخريًا على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها لإبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته لأنّ أم تدل عليها فلا تفترق القراءتان إثبات همزة الاستفهام وحذفها وقيل الضمير في وقالوا لصناديد قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وصهيب وبلال وأشباههم، وقرئ سخريًا بالضم والكسر.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾.

﴿إن ذلك﴾ أي الذي حكينا عنهم **﴿لحق﴾** لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو **﴿تخاصم أهل النار﴾**، وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قُلْتَ: لم سمى ذلك تخاصمًا؟ **قُلْتُ:** شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأنّ قول الرؤساء لا مرحبًا بهم وقول: أتباعهم بل أنتم لا مرحبًا بكم من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصمًا لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾.

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ما أنا إلا رسول **﴿منذر﴾** أنذركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم إنّ دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أنّ لا إله إلا الله **﴿الواحد﴾** بلا ندّ ولا شريك **﴿القهار﴾** لكل شيء.

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾.

وأنّ الملك والربوبية له في العالم كله وهو **﴿العزيز﴾** الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك **﴿الغفار﴾** لذنوب من التجأ إليه، أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته فإنّ مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾.

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذرًا وأن الله واحد لا شريك له نبأ عظيم.

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾.

لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾.

ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبي به عن الملأ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله.

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾.

﴿إن يوحى إليّ إلا انما انا نذير﴾ أي لأنما أنا نذير، ومعناه ما يوحى إليّ إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل الفعل إليه ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إليّ إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا إفراط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إليّ غير ذلك وقرئ إنما بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقول

لكم أنما أنا نذير مبين ولا أدّعي شيئًا آخر وقيل: النبأ العظيم قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس القرآن وعن الحسن يوم القيامة.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق إذ يختصمون! **قُلْتُ:** بمحذوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم و **﴿إذ قال﴾** بدل من إذ يختصمون.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالملأ الأعلى! **قُلْتُ:** أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

فإن قُلْتَ: ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم: قالوا له فانت بين أمرين إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملأ الأعلى **قُلْتُ:** كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أنّ التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملأ الأعلى، والمراد بالاختصام التقاول على ما سبق.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يقول لهم: **﴿إني خالق بشرًا﴾** وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ **قُلْتُ:** وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقًا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿فإذا سويته﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** وأحييته وجعلته حساسًا متنفسًا **﴿فقعوا﴾**، فخروا كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معًا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعًا في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ السجود لغير الله؟ **قُلْتُ:** الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه.

فإن قُلْتَ: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجنّ؟

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾.

قُلْتُ: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً وكان من من باب الخصومة **قُلْتُ:** هذا يحقق أن ما تقدّم من قوله لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار من قول المتكبرين الكفار وقوله تعالى: **﴿بل أنتم لا مرحبًا بكم﴾**[1] من قول الاتباع فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم خلافًا لمن قال إنّ الأوّل من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الأتباع فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين الكافرين أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافرًا لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيها شئت، ويجوز أن يراد وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله **﴿خلقت بيديّ﴾** **قُلْتُ:** قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل: في عمل القلب هو مما عملت يداك وحتى قيل: ممن لا يدي له يداك، أوكتا وفوك نفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك ومنه قوله تعالى: **﴿مما عملت أيدينا﴾**[2] **﴿ولما خلقت بيدي﴾**[3].

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: **﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾**! **قُلْتُ:** الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف منه أنه سجود لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزلّ عنه أنّ الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوا قدّام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيمًا لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حريًا بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي لا شكّ في كونه مخلوقًا امتثالاً لأمري وإعظامًا لخطابي كما فعلت الملائكة، فذكر له ما

(1) سورة صٓ، الآية: 60.

(2) سورة يٓس، الآية: 71.

(3) سورة صٓ، الآية: 75.

obeikandi.com

تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتبارًا لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى عليّ سقوطه يريد هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه أني خلقته بيدي، فأنا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له وقيل: معنى لما خلقت بيديّ لما خلقت بغير واسطة، وقرئ بيدي كما قرئ بمصرخيّ، وقرئ بيدي على التوحيد ﴿من العالمين﴾ ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالين حيث.

﴿قال أنا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ومعنى الهمزة التقرير وقرئ استكبرت بحذف حرف الاستفهام لأنّ أم تدل عليه أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقًا من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خلقتني من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿منها﴾ من الجنة وقيل: من السموات وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسودّ بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنًا وأظلم بعد ما كان نورانيًا، والرجيم المرجوم ومعناه المطرود كما قيل له المدحور والملعون لأنّ من طرد رمي بالحجارة على أثره والرجم الرمي الحجارة، أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب.

فإن قُلْتَ: قوله:

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾.

﴿لعنتي إلى يوم الدين﴾ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع قُلْتُ: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾[1] ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾.

فإن قُلْتَ: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قُلْتُ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿فبعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾.

قرئ: ﴿فالحق﴾ الحق منصوبين على أن الأوّل مقسم به كالله في أن عليك الله أن تبايعا وجوابه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾.

﴿لأملأنّ﴾ والحق أقول اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق والمراد بالحق إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله إنّ الله هو الحق المبين أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ومرفوعين على أن الأوّل مبتدأ محذوف الخبر كقوله لعمرك أي فالحق قسمي لأملأنّ والحق أقول أي أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين على أن الأوّل مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلنّ والحق أقول أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه: التوكيد والتشديد وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضًا وهو وجه دقيق حسن، وقرئ برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثاني وتخريجه على ما ذكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من ذرّية آدم.

فإن قُلْتَ: ﴿أجمعين﴾ تأكيد لماذا؟ قُلْتُ: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه: لأملأنّ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحدًا ولأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعًا، ولا مدّعيًا ما ليس عندي حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿إن هو إلا ذكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للثقلين أوحي إليّ فأنا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم»[2].

(1) سورة الأعراف، الآية: 44.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حفظ اللسان، فصل: في فضل السكوت عما لا يعنيه (الحديث: 5064).

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾.

﴿ولتعلمن نباه﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه من صحة خبره، وأنه الحق والصدق وفيه تهديد عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر مكية

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزم.

فإن قلت: ما المراد بالكتاب قلت: الظاهر على الوجه الأوّل أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾.

﴿مخلصًا له الدين﴾ ممحضًا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصًا بفتح اللام كقوله تعالى: ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ حتى يطابق قوله:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾.

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصًا حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبرًا، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين الا لله الدين الخالص أي هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام ﴿والذين اتخذوا﴾ يحتمل المتخذين، وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في ﴿اتخذوا﴾ على الأوّل راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر ذكرهم لكونه مفهومًا والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأوّل إما ﴿إن الله يحكم بينهم﴾، أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿ما نعبدهم﴾ وعلى الثاني أنّ الله يحكم بينهم.

فإن قلت: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أنّ المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبيّ ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، وقرئ ﴿نعبدهم﴾ بضم النون اتباعًا للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتنوين في عذاب اركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في ﴿بينهم﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكذوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجًا عليهم بقوله:

لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾.

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾، يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولادهُ جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في التفسير: الزيلعي 3/ 195.